والتكتل الإسلامي لا يعني التعصب في أي معنى من معانيه ..

إن الإسلام هو الضمانة الوحيدة في هذا العالم اليوم لوقف حركة التعصب ضد المخالفين له في العقيدة . فهو وحده الذي يعترف بحرية العقيدة ويرعاها ، في عالم الواقع لا في عالم النصوص . وهو وحده الذي يمكنه أن يضمن السلام للبشرية كلها في ظلاله ، سواء من يعتنقونه ومن لا يعتنقونه .. إنه لا يستعمر استعمار الغرب الآثم الفاجر ، ولا يبيد مخالفيه إبادة الشيوعية الكافرة الجاحدة . . إنه النظام المثالي الوحيد ، الذي تستطيع جميع الأجناس ، وجميع العقائد ، أن تعيش في ظله في أمن وسلام .

وطريقنا إذن أن نرفض كل ارتباط يشدنا إلى عجلة الاستعمار — تحت أي اسم وأي عنوان — وأن نرفض في الوقت ذاته كل دعاية تدفعنا إلى فلك ذلك الغول الشرقي ، الذي يبيد العنصر الإسلامي في أرضه بقسوة وشناعة ، لا يقرها الهمج في أحلك عصور التاريخ .

إنه طريق وحيد . طريق الكرامة . وطريق المصلحة . وطريق الدنيا . وطريق الآخرة . . إنه الطريق إلى الله في السماء وإلى الخير في الأرض . وإلى النصر والعزة والاستعلاء .. إنه هو الطريق !

سيد قطب

١٤ ٥ ٣٨

بنات العرب في إسرائيل

للأستاذ علي الطنطاوي

هذه قصة واقعية قرأتها ملخصة في سطور في كتاب (من أثر النكبة) للأستاذ نمر الخطيب ، بطلها رجل من فلسطين يحسن الإنكليزية كان له صديق من أعضاء اللجنة الدولية ، سأله أن يأخذه إلى تل أبيب ليجدد ببلاده عهداً ، فأجابه إلى ما سأل وألبسه لباس أعضاء اللجنة حتى غدا كأنه واحد منها

ووصلوا تل أبيب ، فأنزلهم اليهود في فندق عظيم ، وأولوهم أجل العناية وأكبر الرعاية ، حتى لقد أخبروهم أن إدارة الفندق ستبعث إلى غرفة كل واحد منهم فتاة بارعة الجمال ، لتكون رفيقته تلك الليلة

قال :

ولما أويت إلى غرفتي ، تمثلت لي الفتاة التي وعدت بها ، فلاثت صورتها نفسي وهاجت فيها أدنأ غرائزها ، وأحط شهواتها ، ونسيت أني في بلد العدو ، وأن علي التوقي والحذر ، وارتقبت ليلة (كما يقولون) حمراء ، تلتهب فيها الأعصاب بنار الشهوة الجائعة ، وخيل إلى منطق الغريزة أني إن نلت امرأة من يهود فقد غزوت يهود في ديارها . وثقلت علي الساعات الباقية دون الليل ، وطالت دقائقها ، وجثم وقت الانتظار على صدري فتقارب نفسي ، وازداد خفقان قلبي ، وأحسست بركبتي تصطكان ، وكنت أقعد فلا أطيق القعود ، فأقوم فلا أرتاح إلى القيام . وحاولت القراءة فكانت الكلمات تتراقص أمام بصري ، ثم تستحيل إلى صور صبايا عاريات ، وتضيع المعاني فلا أدرك إلا المعنى الواحد الذي هو في ذهني

وكذلك تصرمت ساعات ، ما أظن أنه مر علي في عمري أثقل منها . وما أظن لذائذ الوصال لو جمع لي ما يلقاه الناس كلهم منها ، تعدل آلام هذه الساعات

... وجاء النادل (الكارسون) يقدم إلي فتاة ، جرفتها ببصري في لمحة واحدة ، وجردتها بخيالي من ثيابها في ثانية ، فرأيتها عارية أمامي ، وجمحت بي الغريزة حتى لا أقدر على الصبر عن عناقها دقيقة ، وعن ضمها إلي ، وعن أن أشد يدي عليها ، ثم آكلها عضا

وكانت شقراء لها شعر ما علمت قبل اليوم كيف يكون الشعر كأسلاك الذهب ، يتموج ويسترسل على كتفين مستديرتين كأنهما ... ولكن ما لي ولهذا الولع بالتشبيهات ، وبماذا أشبه كتفي فتاة عبلة في السابعة عشرة ؟

وكان يبدو من جيب ثوبها الفاضح خط ما بين نهديها ، كأنه خيط يسحب القلب من صدر رائيه ، وأنف أشم كأنف صبي من ولد الإغريق الأولين ، وفم كأنه زر ورد أحمر

وكان ثوبها ينحسر عن ساقين ممتلئتين مستديرتين ، يقطر الصبا منهما والجمال ، ولم تكن فتاة ولكنها كانت فتنة في ثوب امرأة . وكان الحب الذي غنى له الشعراء ، وسبحوا بحمده ، مصورا فتاة . كذلك كنت لما ثبت النظر أخيرا على عينيها

لقد كانت لها عينان ، لا يستطيع السمو إلى وصفهما البيان ؛ عينان فيهما شيء لا أدري ما هو ، ولكني أحلف أني ما

مكنت بصرى منهما حتى أحسست بأن أعصابى الشدودة قد استرخت ، وأن دمى الفائر بالشهوة قد برد ، وأن قد طارت من رأسى كل فكرة جنسية ، وامتلأ قلبى عطفا وحنانا ، كأن أمامى قطة صغيرة وديعة حلوة الوجه ، ناعمة الشعر . هذا ما شعرت به وأنا أعتذر من قرابة هذا الشعور ، وتوهمتها من طهر عينيها زنبقة من زنابق الجبل ، بيضاء كالثلج ، نقية كالندى ، لم يمسها إلا نسيم الأصيل ، ولم تقبلها إلا أشعة الشمس ، ولم تبصر عريها إلا عين السماء

وعجبت أنا من نفسى ، مما يرانى ، قبل أن يعجب القارئ مما أروى

عجبت كيف تكون لى هذه العاطفة على بغى !

أو ليست بغيا هذه التى يقدم جسدها اليهود قرى لضيوفهم كما يقدمون لحوم الخراف وشحوم الخنازير ؟ وعدت أنعم النظر إليها ، فأرى صبية فى ثياب الغوانى ، ولكن فى عينيها حياء العذارى ، وأرى فيها ملامح رقة وتهذيب كأنها ملامح طالبة من طالبات المدرسة ، لا فتاة من فتيات الليل ، فرحت أحاول أن أوحى إلى نفسى أنه دل البغايا حين يسرقن نظرات الأبكار

ووقفت ووقفت وساد الصمت والسكون ، فلا حركة ولا كلام

وعجبت هى منى أكثر من عجبى من نفسى ، كأنها ما تعودت من قبل إلا اقتناء وحوش فى ثياب بشر ، لا يرون فيها إلا ما يراه الذئب فى جسم النعجة ، لا يعنيه منه لونه فى نظره ، ولا ريحه فى أنفه ، ولا لينه فى كفه ، ولكن طعمه تحت أنيابه ، وإن كان جسد النعجة ينال مرة فتموت وتستريح ، وهذه (نعجة) يتعاورها الذئاب كل يوم ، فهى تموت كل يوم ميتة جديدة

ووقفت متململة تحاول الابتسام فلا يلوح على شفتيها إلا بقايا ابتسامة ماتت من زمن طويل . وثقل الموقف ولم يفتح على بكلمة ، فأرادت الخلاص فأشارت إشارة المحكوم عليه إلى الجلاد ليعجل عليه بالإنقاذ ويخلصه من الانتظار الذى هو شر من الإنقاذ

أشارت بيد إلى الفراش . كأنها تقول : تريد ؟ وبالأخرى إلى ثيابها كأنها تقول : أنزع ؟ وعادت أعصابى هياجها ، ولكنى نظرت إلى عينيها فرأيتهما تقولان اقلبى شيئا غير ما تقول اليدان ، فأجبت برأسى أن لا !

ودعوتها فقمدت إلى جنبى ، وهممت بأن تلقى بذراعها على كتفى ، وبصرها تائه فى الأفق البعيد ، كأنها تتحرك وهى منومة ، فنعتها برفق ، وكلمتها بالإنكليزية ، فأومأت بأنها لا تفهمها ، فكلمتها الكلمات القليلة التى أحفظها من العبرية ، فعلت وجهها سحابة سوداء من الألم ، وغامت عيناها لحظة ، ثم أومأت بأنها لا تفهمها ، فكلمتها بالفرنسية فلم تفهم

ففكرت هل أخاطر وأكلمها بالعربية ، وكنت أعلم ما فى ذلك من الأذى لى والضر بى ، ولكنى أقدمت وقلت لها : هل أنت عربية ؟

فانتفضت انتفاضة لو كانت بصخرة لصبت فيها الروح ، ولانبجست فيها الحياة . وأضاء ذلك الوجه الجميل الذى كان عليه نقابان : نقاب من التبذل الظاهر ، ونقاب من الألم الخفى ، وأشرق بنور سماوى وحدقت فى بعينيها العجيبتين ، وفيهما لمعة الفرح ، وفيهما حلقة الذعر ، وقالت :

— هل أنت عربى ؟

فترددت ما بين خوف منها ، وبين عطف عليها ، فخفت أن تكون يهودية فتشى بى ، وأشفقت أن تكون عربية تحتاج إلى ، ثم غلبت ثقتى بها ، فقلت لها :

— نعم

— قالت : وأنا عربية ، من أسرة (كذا) من بلدة (كذا) وهى خمس وثمانون من بنات العرب . . . فأحسست كأن صخرا مسموما قد أوقد عليه وغرز فى قلبى ، وكأن الأرض تدور بى ، ولكنى تثبت ولم أحب أن أقطع السكينة بهذا الحلم البهى الذى رأيت ظلاله على وجهها ، لقد حسبت من خلال الفرحة الطارئة أنها من يافا العربية ، وأنها قد عادت إلى طفولتها المدللة ، وعادت لها طهارة تلك الطفولة ، وأنها لا تزال العذراء البكر تعيش بين أهلها وذويها فى حمى الأبطال العرب الذين كانوا يحرسون أرض الوطن ، وعرض بنات الوطن ، وهى الجيوش العربية التى كانت أعلامها تلوح على الآفاق الأربعة البعيدة ، من وادى النيل ، وجنبات الأردن ، وخمائل الغوطة ، وسهول العراق ، وبطاح نجد ، فتبعث فى نفوس عذارى فلسطين الدعة والأمن ، وفى قلوب شبابه الزهو والكبر ، وتعنمها أن

تطيف بها رهبة من يهود

ولكن هذه الإشراقة ما لبثت أن بدت حتى اختفت . إن الصبح الذى حسبته قد انبلج بعد ما طال منها ارتقابه لا يزال بعيدا ، والشاطىء الذى ظننته دنا بعد ما اشتد إليه حنينها لايزال ضائعا فى الضباب، ولا يزال مكتوبا عليها أن تقاسى الذل آماداً أخرى ـ لا يزال فى الكأس المريرة بقايا عليها أن تتجرعها

خبت إشراقة النور التى وقدت على جبينها ، وانطفأ البريق الذى لمع فى عينيها ، وهيض الجناح فهبطت من سماء الأحلام إلى أرض الحقيقة التى قيدتها بها قيود اليهود . وصحت من سكرة الفرح فإذا هى حيث كانت ، لا الحرية عادت ولا الأهل ، ولا الليالى الماضيات تعود

وغاضت النفس رحمة بها وحنانا عليها ، فطوقتها بيدى فانكمشت والتصقت بى ، كما تفعل القطة الوديعة، وأخفت وجهها فى صدرى ، وهى تنشج نشيجا خافتا ، تمنيت معه لو أستطيع أن أشترى سعادتها التى فقدتها بحياتى لأردها عليها ، وأحست أنى أحبها منذ الأزل ، وأنى لم أعش يوما منفردا عنها ، ولا أعيش يوما بعد فراقها ، وأن قد امتزج منا الجسمان ، واتحد الروحان ، واختصر الزمان حتى كان هذه اللحظة وحدها ، كما يختصر شعاع الشمس فى عدسة الزجاج فى نقطة واحدة ، وفى هذه النقطة الأشعة كلها ، فلا ماض مضى ولا آت يجىء ...

وهتفت بى ووجهها خلال ثيابى ، وأنا أحس خفق قلبها فوق صدرى ، كأنه حديث من قلبها إلى قلبى :

— ان أعود إلى حمأة الرذيلة . ان أعود . خذنى معك ، إلى الشام ، إلى الأردن ، إلى الصحراء ، إلى أى بلد عربى لا حكم فيه لليهود . خذنى أكن خادما لك ، أكن أمة ، أو فأعنى على الموت ، فإنى لا أجرؤ وحدى عليه ، حتى لا أهين بجسدى الملوث الأرض التى احتوت رفات الجدود

* * *

لقد رأت فى المسكينة شماعة تخلفت من نهارها ، وزهرة بقيت من روضها ، فحسبت أن النهار الذى ولى وغربت شمسه يعود ، وأن الروض الذى جف وصوح نبته يرجع . وهيهات هيهات ! لقد فقد العرب كبرياء العرب ، وأضاعوا عزة العرب ، وشهامة العرب

لقد هتفت أسيرة عربية فى قديم الدهر ، باسم ملك العرب المعتصم فنحى الكأس وقد دعا بها ليشربها ، ووثب من فوره يجيبها

(أجابها) ملبيا بالسيف منصلتا ولو (أجاب) بغير السيف لم يجب

حتى اقتحم من أجلها جيش هرقل صاحب البرين والبحرين ونازل الروم من كانوا يوما سادة الأرض ، وعاد بالمرأة وعاد بالنصر الذى طبق خبره الأرض ، وطاول مجده السماء

فهل من ينقذ اليوم آلاف النساء ، نساء العرب ، من سبى أذل الأمم : اليهود ؟ هيهات ! لقد فقد العرب كبرياء العرب ، وعزة العرب !

* * *

وعادت تقول وهى مخفية وجهها خجلا :

إن ترنى اليوم ماشية فى طريق الفجور ، فلقد كنت يوما بعيدة عنه ، جاهلة به ، وكان لى أبوان شريفان وكانت لى أخت ، وكانت ...

وشهقت شهقة ألمة

... فهل يعلم أحد أين هى أختى ؟

لقد أراد لى والدى الحياة الماجدة الكريمة — فربانى على الدين والخلق — وعلمانى حتى نلت الشهادة المتوسطة ، وتهيأت للبكالوريا ، وأطلعنى أبى على روائع الأدب ، وكنوز المعرفة ، وكان يرجو لى مستقبلا فكان مستقبلى .. كان ... كان ...

وشرقت بدمعها

لقد قتلوا أبى يوم الواقعة ، أفتدرى كيف قتلوه ؟ إنهم وضعوا البندقية فى ... كيف أقول ؟ فى مكان العفاف منها ، فوقعت أمامى تتخبط بدمها ، أما أبى فهرب بى وبأختى وانطلق يصدر حتى لحقوه ، فجعلوا يضربونه بأعقاب البنادق وبأيديهم وبأرجلهم حتى سقط . واستاقونا ...

ورحت أتلفت وأنا أكاد أجن من الذعر ، أنادى: أبى ! أبى ! أحسب أن أبى يسمع ندائى بعد الذى نزل به أو يقدر على حراك . ولكن أبى قد سمع وشدت روح الأبوة ، وسلائق العروبة من عزمه ، فنهض يسعى لينقذنى وكلما وفى ذكر أن ابنته

التى رباها بدمه وغذاها من روحه ورجا لها المستقبل البارع ستغدو أمة لليهود ، فتعاوده القوة حتى استنفد آخر قطرة من قواه ، فسقط مرة ثانية قبل أن يدركنا

تمر على الإنسان المصائب الثقال فينساها . يمرض حتى يتمنى الموت ثم يدركه الشفاء فينسى أيام المرض . ويموت أليفه فيألم حتى يعاف العيش ثم ينسى موت الحبيب ، ولكن مصيبة الفتاة بعفافها لا تنسى حتى ترد ذكراها معها الموت

لقد كانت هذه الساعة بداية آلامى التى سأحملها معى إلى القبر . فقدت الأب والأم ، ثم فقدت العفاف وغدوت مثل البغايا ، فأين عينا أبى تريانى ؟ أين أبى ؟ هل هو حى معذب مثلى أم قد مات واستراح ؟

إنى لأرجو أن يكون قد مات . أفرأيت ابنة تتمنى الموت لأبيها ؟ نعم . حتى لا يرى ما حل بابنته فيجد ما هو أشد عليه من الموت

ولما غدوت وحيدة فى أيديهم ، وعرفت أنه لا معين لى بعد أن فقدت أبى ، تنبهت فى القوى الكامنة ، وأمدنى اليأس بالعزم ، وشعرت بأنى كبرت فجأة حتى أصبحت بجنب أختى الصغيرة أما لها بعد أمها ، وأبا بعد أبيها ، وأن على أن أحميها . وقلت لنفسى : إذا كانت الدجاجة تدفع عن فراخها هجمة النسر ، والقطة إن ضويقت واستيأست تقاتل الذئب ؟ فلم أعجز عن حماية هذه الطفلة؟ وقد كانت طفلة حقا ، كانت فى الثالثة عشرة تبكى بكاء مارأيت قط مثله ، وترتجف كل عضلة من جسمها كما ترتجف كل ورقة فى الشجرة هبت عليها رياح الخريف

وتنمرت واستبسلت دونها ولكنهم غلبونى وأخذوها منى ثم وضعونى فى سيارة جيب مع ثلاثة من جنود يهود

وطفقت أدافع بيدى ورجلى ، وأعض بأسنانى حتى عجز منى أنا البنت الضعيفة ثلاثة الرجال . فلو أن كل عربى من أهل فلسطين وكل امرأة وكل ولد ، كان قاتل بسلاحه وقاتل بعصاه إن لم يجد السلاح ، وبحجارة أرض الوطن وبيديه وأسنانه لما استطاع اليهود ...

ولما ذكرت اليهود ارتجفت من الخوف . وتلفتت حولها تخشى أن تسرق همسها آذان خفية فى الجدار فتنقله إلى جلاديها

قالت :

وصب فى الخوف على أختى قوة لم أكن أتصور أنها تكون لأحد ، فاغتنمت لحظة غفلة ممن معى ووثبت من السيارة فوقعت على ركبتى

وكشفت عن ركبتيها وقالت : أنظر ، ثم عاودها حياء العذراء التى كانتها يوما والتى تقص قصتها فاحمرت فسترتهما

قالت :

وجعلت أعدو حافية وقد سقط الحذاء من رجلى على التراب والشوك حتى لحقوا بى وأعادونى

وجعلت أدافع ، فأحسست غرز إبرة فى يدى ، ثم لم أعد أشعر بشىء

وسكتت لحظة وكادت من الحياء يدخل بعضها فى بعض . وصار وجهها بلون الجمرة ثم تكلمت بصوت خافت كأنه آهات مكتومة لم أتبينها حتى دنوت منها ولفحت أنفاسها الحرى وجهى

قالت :

ولما صحوت وجدتنى ملقاة على أرض السيارة ، مكشوفة ... وعلى فخذى آثار دم ! !

وعادت تنشج ذلك النشيج الذى يفتت القلب

لقد أراقت دم عفافها لأن رجال قومها لم يريقوا دماء أجسادهم فى سبيل الأرض وفى سبيل العرض . لقد خدروها بهذه الإبرة كما خدروا زعماء العرب بالوعود وبالخدع وبحطام من الدنيا قليل

* * *

قالت :

وصرنا ننتقل من يد إلى يد أنا وبنات قومى العرب ، كالإماء فى سوق الرقيق لم تهدر كرامتنا وحدها ولم تضع أعراضنا فقط ، بل لقد فقدنا صفات الإنسانية . غدونا (أشياء) تباع وتشرى ، ويساوم عليها ، صارت لحومنا قرى لضيوف اليهود !

إن البائس ليلاقى فى مغارات اللصوص ، وفى سراديب السحرة قلبا طيبا يحنو عليه ، ويخفف بؤسه . ولكنا لم نلق هنا رحمة من أحد

لقد قرأت مرة فى قصة كان دفعها إلى أبى مترجمة عن الكاتبة

الأمريكية أ . بيشر ستو ، أنه كان من أحلى أمانى الرقيق أن يباع معه قريبه وألا يفصل الرق الأم عن بنتها والولد عن أخته ، فكنت أعجب من تلك العصور وهوان الإنسانية فيها ، فأى حقيقة مروعة مرعبة رأيت ؟ بنات العرب صرن رقيقا لليهود لا للعمل ولا للخدمة بل للخزى والفجور ... وهأنذى مثل ذلك الرقيق : كل ما أتمناه أن يجمع الرق الأبيض بينى وبين أختى !

هذا ما تتمناه بنت الأسرة العربية الشريفة بعد نكبة فلسطين . أما حنان الأب ، أما حب الأم ، أما عزة العفاف وكرامة العروبة ، وتلك الأيام التى كانت ترتع فيها فى روض الطفولة فلم يبق من ذلك كله إلا صور باهتة فى أعماق الذاكرة ، لا تجرؤ هى أن تحدق فيها .. كلا إنها لا تستطيع أن تسمو إلى بعث هذه الذكريات .. إن الرأس الذى أحنته وصمة العار لا يقدر أن يرتفع بنظره إلى السماء

ولكن الوصمة ياأختى — يا أختى على ما أنت عليه ، الوصمة ليست على جبينك أنت ، إنها على جبين كل عربى يرضى لك هذا الذى أنت عليه

وكانت ليلة ليلاء ، ما عرفت فيها إلا لذع الآلام

لقد كان من المستحيل أن نفكر بالغاية التى بعثوا بها من أجلها ، ذلك لأن الشهوة لا تنام على فراش حشى بأشواك الدعر ، وغريزة الجنس لا تسكن قلبا ملأته بالآلام نكبات الوطن

لقد صيرتها جوامع الأحزان ، أختى . ولا يستطيع الشيطان أن يدخل بين أخوين جمعتهما فى ظلمة الليل أوجاع القلب الجريح

وانتهت الليلة وجاء التادل فى الصباح ليقدم الفطور قوت الصباح ، ويحمل الفتاة قوت الليل ، فاضطرمت فى رأسى نار النخوة لما أبصرته ، ولكنها كانت (يا للعار) نار القش لا تضطرم فلا تجد الحطاب الجزل فتنطفىء

وودعتنى بنظرة . . . بنظرة لا يمكن أن يعبر عن وصفها ومعناها لسان بشرى

وجاءت السيارات تحملنا لنعود من حيث أتينا ، نعود ونترك بناتنا يفتك بأعراضهن اليهود ؛ ومررنا بيافا ، ونظرت إلى هذه المنازل التى كانت بالأمس لنا فصارت لغيرنا ، خرجنا منها فى ساعة واحدة انحطت علينا فيها النكبة كما تنحط الصاعقة ، الأثاث الذى نضدناه قعد عليه غيرنا ، والطعام الذى طبخناه أكله غيرنا ، والفراش الذى مهدناه ، آه . هل أستطيع أن أنطق بالحقيقة المرعبة ؟

ولكنها حقيقة ، إن الفرش التى مهدناها ، هتك اليهود عليه عفاف بناتنا !

ويبقى على ظهر الأرض عربى لا يقنع وجهه حياء ، ولا يوارى وجهه خجلا ، خجلا من أمجاد الأجداد ، خجلا من سلائق العروبة ، خجلا من عزة الإسلام !

يارجال العرب إن لم تحموا أعراض نسائكم فلستم برجال

يا جنود العرب ، إن لم تدفعوا الأذى عن وطن العروبة وعن أعراض بناتها ، فاخلعوا عنكم ثياب الجنود يامن أضاعوا فلسطين ، عليكم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين

واختفت يافا ، وغابت وراء الأفق وأنا لا أزال أرى تلك النظرة التى ودعتنى بها . لن أنساها أبداً ، ولن أنسى أنى تركتهم يأخذونها وأنا حى ، وأنى كنت جبانا ، وكنت نذلا كالآخرين !

على الطنطاوى